وجمور وطبقة ، يولد ويدور ويعيش في مكانه (مجتمعه) وفي زمانه (حقبة تاريخية معينة) ، وعندما يبتعد هذا الشعر وينأى عن زمانه ومكانه يغدو صوفيا او ذاتيا مبهما يدور في « فضاء وزمان » كاتبه ، اي مجتث الجذور .

ان قراءتنا لشعر توفيق بشكل خاص ولشعر المقاومة الفلسطينية بشكل عام تتم في هذا الاطار ، فهذا الشعر هو صوت نوعي للنضال الفلسطيني ، وهو انعكاس لهذا النضال واعداد تربوي لمتابعته ، وهذا ما يحدد المنحى العام ، المنحى الثوري والفني له. لذلك فنحن لا نبحث عن خصائص الشعب الفلسطيني (شعب ذو قضية) في شعره بل نبحث عن خصائص شعره فيه ، فالشعر الفلسطيني نما في رحم فلسطيني وولد على فراش فلسطيني ايضا ، وبذلك يلتقي الفني والاجتماعي والتاريخي بشكل كامل . فالفني هو الانعكاس الذهني للحدث المادي « الذي يدرس القوى التي تحرك العالم لضمان استمرار هذه الحركة » (٣٠)

ان الابداع الفني كتعبير عن وضع معين لا يستطيع ان يتجاوز حدود هذا الوضع ، ربما يستطيع ان يشير الى المستقبل والى افاق قادمة ، لكن هذه « الاشارة » لا تأخذ دلالتها ومعناها ان لم تستند الى ذلك الوضع المعين ، فوعي الفنان لا يكون وعيا ممكنا الا اذا ترابط بالوعي الاجتماعي في زمانه ، ويمكن ان نقول ان للفنان وعي راهن يرى فيه زمانه ووعي ممكن يقذفه الى المستقبل ، لكن هذا الوعي في شكله الراهن والممكن يخضع بالضرورة لضغط الوعي الاجتماعي ، (٣١) ، وهذا ما يخلق احيانا شرخا في عمله الفني ، ولا نقول شرخا بالمعنى السلبي للكلمة بل بمعنى تواجد الحاضر والمستقبل في العمل الفني ، الحاضر كحاضر وكمحدد للمستقبل في الوقت ذاته ، اي تناقض ظاهري يتضمن في جوهره وعيا « عميقا » لحركة الحاضر ومساره ، وهنا يأخذ الفهم شكل الحدس في غطاء شعري او فنيبشكل عام .

ان شعر توفيق زياد لا يعكس وضعا فلسطينيا بشكل عام ، بل يعكس وضعا ثوريا يشرع له اشكاله الشعرية المختلفة من الشعر الكوني الى شعر المناسبات مرورا بالشكل التحريضي . واذا كان شعره الكوني سيدخل كوثيقة ادبية في التاريخ فان شعره التحريضي سيدخل ايضا التاريخ كوثيقة تاريخية تحمل في طياتها نضال ومأساة شعب .

في زمن الثورة ، زمن توفيق زياد ، لا نقف طويلا امام « اللذة » الشعرية و « كمال الموهبة » ، بل نقف امام مدى تواجد الثورة في الشعر ومدى تواجد الشعر في الثورة بشكل يدفع على المستوى الاخير الثورة الى الامام . وبذلك لا يقف شاعرنا مغتربا لا في ذاته ولا في شعره ، فنمط ممارساته لا يسمح بشعر تائه او مغترب . يقول ستيفان مورافسكي عالم الجمال البولوني :

« في زمن الثورة علينا ان نحاكم الفن من خلال مضمونه وشكله ، وفي زمن الهدوء علينا أن نحاكمه من خلال شكله » (٣٢)

ان شعر توفيق **بكليته** لا يعبر عما يريد شاعره بل عن الحاجات الانسانية في زمانه . وسيبقى شعره **بكليته** وثيقة في التاريخ ، لان شاعرنا لم يغن في اشعاره نقودا ضائعة او عشيقة هجرته لكنه غنى ضياع الوطن وغنى لاستعادة الوطن المفقود .

مراجع الموضوع

1-MARX : Critique de l'économie politique, p. 88.

2-Recherches internationales, No. 38, pp. 83-84.

٣ — ديوان توفيق زياد ، دار العودة ، ص ١٢٦

٤ — نفس المرجع السابق ، ص ١٢٤

٥ — نفس المرجع السابق ، ص ١٢٠

٦ — نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣